مع الكونت دي ڤولني

في لبنان وسورية

بقلم يوسف عصوب

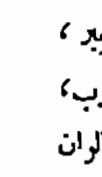

الاسماء ما هو حافلٌ بالذكريات والصور مثقلٌ بالموحيات والعبر ، فلفظة الشرق تفتح ، بمجرد النُطق بها ، لاسيما في بُلدان الغرب ، آفاقاً واسعة تضطرب بالاساطير والحقائق ، وتموج بالالوان والانوار وتَغُصُّ بالمبهمات ، فالشرق مطلع الشمس ، ومهد البشرية ، ومهبط الوحي ، ونجر الفلسفة ، وموطن المدنيات الغابرة والديانات البائدة والباقية . والشرق بابل وصور واورشليم وآتينا والاسكندرية ومكة ودمشق . والشرق سُقراط وافلاطون وهوميروس والفردوسي والغزالي وسليمان الحكيم والاسكندر والفراعنة . والشرق سميراميس والزبّاء وكليوبطرا ... ومهما اعدّد فلن أبلُغ غاية مما تشتمل عليه هذه اللفظة الساحرة .

ومن الالفاظ ما يعبق فيه الطيب كشيراز ، وتعثُره الاساطير كبغداد ، ويفيض منه الجمال كلُبنان . فلا غرابة ، والحالة هذه ، ان يكون الشرق حُلُم الشعراء ومطمَع الفاتحين ومَطمَح الكتاب والمؤرخين ، وغاية الرَّحالة والحُجّاج ؛ وان يكون ، منذ كان ، على صلة دائمة بالغرب تتّسع او تضيق ، وتعظُم او تضؤل ، تبعاً للاحوال السياسية والدينية والتجارية . فالشرق والغرب ما فتئا يتطاوران مُلاءة الفضل ، ويتبادلان تيّارات الحضارة والثقافة ، فتارةً يكون فضل الشرق على الغرب وطوراً يكون الامر عكس ذلك . ومن العبث ان نُلِمّ الان ولو الماماً خاطفاً ببعض ما بينهما من اواصر وثيقة قديمة او حديثة وما تقايضاه على مرّ الايام ، من مبادئ دينية ، ومذاهب فلسفية ، واطوار اجتماعية . فهذا لا يتيسر الا في المُجلدات الضخام والدروس الدقيقة . فجُلّ ما اطمح اليه مرافقة بعض الكتاب والشعراء الفرنسيين ، ولاسيما الكونت دي ڤولني ، في رحلاتهم الى الشرق ، وبالاخصّ الى لبنان .

كانت الديانة ، منذ عصور النصرانية الاولى من اوثق العُرى التي ربطت « غالية » باراضي الشرق المقدسة . وكان النصارى او المتنصرون يتوقون الى زيارة موطن المسيح والتبرك بالاماكن التي تجسّد فيها وترعرع وبشّر وصُلب ؛ والى لثم التراب الذي مسّته قدماه . فكانوا ، على بعد الشقة وخطر الطريق ووعورتها ، يقصدون الى فلسطين ، مدفوعين اليها بالعاطفة الدينية . ذكر هنري بوردو في كتابه « رحّالة الشرق » زائرًا امّ هذه البلاد في سنة ٣٣٣ للمسيح ، ودوّن رحلته في كتاب له قيمةٌ تاريخية عظيمة .

وكثر عدد الزوّار والسيّاح . فاتخذ ملوك الفرنج يهتمون بامرهم ، ويسهرون على راحتهم حتى ان شارلمان بنى لهم في القدس مأوى واسع الارجاء يتألف من اثني عشر منزلًا يلجأون اليه ويقيمون فيه ما شاؤوا ، وانس فيه مكتبة وشيّد له كنيسة ، ووقف عليه كرومًا ومزارع . وكانت الزيارات الدينية تصطبغ بصبغ مختلفة . فمنها ما كان يقوم به الزوّار تورعًا وعبادة ، ومنها ما كان تكفيرًا عن الخطايا والآثام ، ومنها ما كان يُفرض فرضًا على الملوك والامراء قصاصًا لهم وتكفيرًا عن بعض جناياتهم . ثم تكاثرت الاسفار ، وتكاثرت الاحاديث والاخبار عن الاراضي المقدسة ، وتولدت الاساطير والاقاصيص . وتدخلت في الامر الغيرة الدينية والمطامع السياسية فكانت الحروب الصليبية . واتسعت على اثرها الصلات بين الشرق والغرب على اختلاف انواعها وتوقفت زمنًا ثم تراخت الى ان كان عصر الانبعاث فعاود الغرب حنينه الى الشرق . ولم يكن باعثُ هذه المرة عاطفة دينية او مطمع سياسي بل رغبة ملحة في استيحاء فنه والاطلاع على علومه وفلسفته .

ولم يصبح الشرق مادةً للادب في فرنسة الّا في اواخر القرن الثامن عشر وكان قد ترجم القرآن وبعض المؤلفات العربية وعلى الخصوص الف ليلة وليلة . وطبعت بعض قصص شرقية لفولتير ، و« الرسائل الفارسية » لمونتسكيو ، وانتشرت التوراة باللغة الفرنسية . ووافق هذا كله ظهور المدرسة الرومانطيقيّة ، ومن خصائص هذه المدرسة طَرقُ المواضيع الغريبة ، ومحاولةُ الدقّة في أداء الالوان المحلية . ولا يقتصر هذا التعبير على الالوان وحدها بل يتناول ايضًا

العادات والاخلاق والحالات النفسانية ، مما اهاب بالكتّاب والشعراء والعلماء الى السفر والتقرّب للعودة الى قرائهم بغنيمة غريبة عجيبة . ثم كانت حملة نابليون على مصر ، ووقعت الحرب اليونانية التركية . وظهرت «عبقرية النصرانية» لشاتوبريان ، و«المشرقيات» لفيكتور هوغو ، فتجدد التوقان الى الشرق ، وازداد الازدحام على مناهله ، والتهافت على مناجمه . فجاء علماء الآثار للكشف عن مخبآت الايام ، وبعث العصور الغابرة ، وجاء علماء الاجتماع لدرس عادات اهله واخلاقهم وشرائعهم . وجاء شعراء الرومانطيقية للتغني بجماله ، والانتشاء من الوانه وانواره . وجاء المرسلون ليبشروه بالدين ، ورسل السياسة ليُعدّوا طريق الهند ، وجاء التجار والسيّاح والفاتحون . وتوالت القوافل وتعددت حتى اتصلت رؤوس بعضها باذناب البعض الآخر وباتت تلتقي في طريقها بقوافل الشرق الى الغرب . وكان للبنان القسط الاوفر والغنيمة الكبرى من هذا التواصل ، فاصبح على ما هو عليه الان من حضارة وثقافة وغنى ورفاهية ما كان ليحلم بها لو بقي في عُزلته مستقراً في عُقر داره.

ولكننا لا نتمثل بوضوح الطريق التي اجتزناها الا اذا طوينا العصور القهقرى ورجعنا ادراجنا الى اواخر القرن الثامن عشر ، وجُلنا جولة في الربوع اللبنانية والسورية برفقة احد الكتّاب الفرنسويين، الكونت دي ڤولني ، الذي زار بلادنا في ذلك الزمن ، وكتب عنها كتاباً على جانب عظيم من الدقة والصراحة والتجرّد . غير انه قبل درس هذا الكتاب الذي هو حجر الزاوية في موضوعنا لا بدّ لنا ان نمرّ مرّاً سريعاً ببعض الشعراء والكتاب الذين اتوا لبنان واستلهموه وكتبوا عنه.

❁

قلنا ان الشرق اصبح في القرن التاسع عشر مادة ادبيّة راجت سوقها لندورتها واختلافها عن المألوف في البُلدان الاوربية. وكان اوّلَ من استغلّ هذه المادة شاتوبريان في «رحلته من باريس الى اورشليم». وقد اوضح في اول كتابه الغاية من سفره الى الشرق بقوله: «انا جئت الشرق لافتش عن صور للشهداء.» و«الشهداء» رواية مشهورة له يقصّ فيها حياة النصارى في اول عهدهم ، وما

كابدوه من اضطهاد وعذاب في سبيل دينهم.

وتبع شاتوبريان في هذه الطريق غوستاف فلوبير ، فقصد الى الشرق ليجمع مواد الملحمة القرطاجية « سلامبو » نشيد المدنية والعبقرية الفنيقية . غير ان رحلته لم تكن الّا مجموعة رؤوس اقلام وجُمَل مقتضبة يضبُط بها ما يراه في تجوّله من مشاهد واخلاق وعادات ضَبطَ المصور الشمسي فلا يفوته لون ولا يُخِلّ بحركة . فكان يختلف في ذلك عن شاتوبريان الذي يُسهب في الوصف وينشئ قطعاً ادبية كاملة تستقلّ بنفسها.

ويختلف شاتوبريان عن لامرتين الذي جاء بعده . فان الشاعر الرومنطيقي لا يكتفي بان يؤدّي لنا صورة ما يرى بل يُكمّل هذه الصورة ويُضيف اليها ما يَحسبُه ناقصاً فيها ، مستدركاً بذلك ما تكون قد اغفلته الطبيعة . فان تكن المشاهد الطبيعية حالاتٍ نفسانية فان نفس لامرتين مرآةٌ تنعكس عنها العظمة والجلال والعواطف السامية . ولنا بوصفه الشهير لوادي حمّانا خيرُ شاهد على ما قدّمنا.

وهناك وصّاف آخر يختلف عنهم جميعاً هو جرارد دي نِرڤال . فهذا الشاعر اللطيف القريب الى القلب ، العائش ابدًا في عالم من الاحلام ، لا يدري هو نفسه ما نصيب الحقيقة وما نصيب الوهم في كتاباته . فقد يصف شيئاً لا وجود له ، وهو يعتقد انه حقيقة ؛ ويصف شيئاً موجودًا كأنه غير موجود . فهل عاش هذا الشاعر حياتين في عصرين مختلفين فخلط بينهم ؟ ولا يبتعد هذا فانه قد اعتنق يوماً مذهب التقمّص للاقتران بفتاة درزية وهمية توهّم أنه يُحبّها . ومن الغريب ان بعض النقدة الفرنسويين يشكون برحلته الى الشرق ، وقد فتش موريس بارس وهنري بوردو عن أثر له في الاماكن الشرقية التي مرّ بها فلم يجداه.

ومن مشاهير الفرنسويين الذين زاروا الشرق في اواسط القرن التاسع عشر ارنست رينان . فانه جاء لبنان على رأس بعثة اثرية للتنقيب في خرائب جبيل . فوجد الآثار وفقد الايمان . وما «حياة يسوع» في نظر علماء التاريخ والمحققين من النقاد الا رواية خيالية لا ترتكز في جوهرها على شيء راهن من الحقيقة.

ثم تكاثر روّاد الشرق وتباينت غاياتهم ومآربهم ، ولا سبيل الى عدّهم فهم كثُر . غير أنه لا بد لنا من ذكر ميشو مؤرخ الحروب الصليبية ، ولوتي ،

الرواني الشهير، ولويس برتران. وهذا الاخير جاء بلادنا على اثر الانقلاب العثماني، وكان قد ازعجه واحرجه ما يقال عن الشرق وعن جماله وعظمته، فصمم على ازاحة الستار من هذه الاوهام، كما يقول، لتبدو الحقيقة عارية كما هي، فجاء رحلته «بالسراب الشرقي». دوّن برتران في كتابه ملاحظات كثيرة عن اخلاق اهل الشرق وعن عاداتهم. وكان في بعض الاحيان سديد الرأي، ثاقب النظر، غير أنه بعيد عن القلب ينفرُ منه القارئ الشرقي ويتمعض. فلهجته ملأى بالكبرياء والغطرسة، وهو لا ينقطع، في المقابلة بين الشرق والغرب، عن التبجح «بحضارته» ونبل عنصره، ويكثر عند تكلمه عن الشرقيين من ذكر العبودية والخنوع والخيانة والغدر والرياء، كأنما هذه الصفات مقتصرة على الشرقيين دون سواهم من الناس.

هذا ولم ينضب معين الشرق، على تعدد الكتّاب والشعراء والباحثين والمؤرخين، بل ما زال موردًا عذبًا يؤمّه المتعطشون الى الجمال، والمتشوّقون الى ادراك مبدأ الحياة الروحانية التي تتفجّر ينبوعها في هذه الربوع الشرقية وشاع منها ولا يزال. وقد عُني موريس بارس عناء خاصًا بالتفتيش عن مصدر الفكرة الدينية، عن الشرارة الكامنة في الصوّانة، في القلب البشري، وعن كيفية انبجاسها من الصخر والهابها العالم؛ فلم يترك مزارًا في لبنان وسورية يأمل منه بلوغ غايته الّا زاره. وكأنه كان يطمع بان تتجلّى له الالوهية كما تجلّت للقديس بولس على طريق دمشق، فانحنى يخشع على ينابيع العبادات التي توالت على الشرق، وتوارث بعضها بعضًا، وسألها رشفةً من مائها الاول يَبلُّ بها غليله، فقضى ليلةً في وادي افقا يُنصت لاناشيد الباخوسيات وعربدتهن، وسأل الراهبة هندية عن سرّ تعبّدها وبجرانها، وشيخ الجبل عن سيطرته على اتباعه وطاعتهم العمياء له، وجلال الدين الرومي عن تصوّفه وزهده، واظهر رغبةً صادقة بان يحسّ الشرارة تلتهب في صدره. لكنه عاد وهو على عطشه.

وهنا يجدر بنا ان نرجع القهقرى الى اواخر القرن الثامن عشر، لنرى ما كانت عليه البلاد الشرقية ولبنان في ذلك الزمن.

وُلد ڤولني سنة ١٧٥٧. وبدأ رحلته الى الشرق سنة ١٧٨٣، اي في

السادسة والعشرين من عمره . على ان من يطالع كتابه يعجب ، على حداثة سنه ، من سعة اطلاعه ، وقوّة حجّته ، وسداد رأيه . ومما يحملنا على الثقة به والاعتماد عليه ، ما جاء في مقدّمة رحلته الى سورية ومصر ، اذ ذكر أنه ورث مبلغاً من المال لم يكن بالوافر فيستثمره ، ولا بالزهيد فيُهمله . وكان عندئذ في شرخ الشباب فأشار عليه بعض اصدقائه المخلصين بانفاقه في مواطن اللذة واللهو . غير أنه لم يُصغِ الى نصيحتهم . وفضل انفاقه في الاسفار التي تهذب العقل ، وتثقف الرأي ، واختار مصر وسورية لان هذين القطرين هما على حدّ قوله : « مصدرُ المبادئ التي نتشيّ عليها ، ومنبعُ الافكار الدينية التي اثرت في اخلاقنا الخاصة والعامة ولا سيما في حالتنا الاجتماعية .

«فمن المفيد اذن ان نتعرف الى هذه الاقطار وان ندرس عاداتها وطبائع الامم التي نشأت فيها ، انرى الى اي حد حافظت هذه الامم عليها ، ونتبين اثر الاقليم او الحكم في تبدّلها او فسادها ونحكم على ما كانت عليه في ماضيها باطلاعنا على ما بقي منه في حاضرها »

ثم قال : « ينصرف معظم الرحّالة الى البحث عن الآثار القديمة ، مهملين الحالة الحاضرة . واذا مرّوا في بلد ، اسرعوا في اجتيازه فلا يتمكنون من معرفته معرفة كافية لضيق الوقت ولجهلهم لُغة الاهلين . فاللغة تساعد على تفهم روح القوم واخلاقهم . والزمن يغربل التأثرات الاولى وينقيها ويردّنا الى آراء هي اقرب الى الصواب والانصاف . وقد راعيتُ جانب الحقيقة ما استطعت واوصدت أذني دون داعيات الخيال ، على علمي بما لها من اثر لدى جمهرة كبيرة من القراء » .

ان هذه الخطة التي اختطها الكونت دي ڤولني لرحلته قد اتّبع خطوطها خطًا خطًا ، ولم يحد عنها في جميع ما كتب عن البلاد التي زارها .

فبعد ان ذكر الاحوال الطبيعية والجغرافية في مصر وسورية ، ووصفها وصفاً مسهباً شاملًا ، تناول الحالة السياسية والاجتماعية فيها فقال عن سورية ما مؤدّاه :

اكتسح السلطان سليم الاول البلاد السورية في اوائل القرن السادس عشر ، وطرد منها المماليك ، واستولى عليها بحد السيف فكان له فيها حقّ الفاتح يستعبد اهلها ، يستحيي من يشاء ويقتل من يشاء . واصبحت الارض

ومن عليها ملكاً له يتصرّف بها وبالعباد تصرّف المالك بعبده ، لا رأي فوق رأيه ، ولا شريعة الا هواه . وخبا في مهبّ هذه الريح السموم مَشعل الحضارة العربية الذي اضاء العالم وهداه عصوراً طوالاً فكأنّ لم تكن دمشق عاصمة الشرق ، ولم تكن بغداد منارة العلوم والاداب ، وساد الظلام والظلم جميع الاقطار العربية .

كان السلطان ظلّ الله على الارض بين شفتيه الموت والحياة ، واليه مرجع كل شيء ولم يكن بينه وبين رعيّته الّا ما يكون بين الراعي والقطيع : الراعي الغُنم ، وعلى القطيع الغبن . غير أن هذا التشبيه ناقص من وجوه عديدة فالراعي يتعهد قطيعه ، ويُعنى به فيسوقه الى المرعى ويقيه غوائل القرّ والحرّ ، ويصونه من الضواري ويُجنّبه المهالك . اما السُلطان فلا همّ له الا جزّ صوفه والتغذي بلحمه ولبنه . ولعلّ عُذره ان القطيع عديد مترامي الاطراف يصعب عليه جمعه والسهر عليه بنفسه ، فقسّمه قِطعاناً وكّل بها الى أُجراء اطلق يدهم في شؤونها ، على ان يؤدّوا له إتاوة معيّنة .

ليس ما مثلناه بالراعي والقطيع من الصور البيانية بل هي الحقيقة بعينها . فان البلاد السورية كانت شبه مزرعة للسلطان يؤجرها ولاته ويُقيمهم فيها مقامه ، ويزوّدهم بسلطته المطلقة ، لا يُسألون عن سلوكهم فيها ، ولا عن ادارتهم ولا يطلب منهم الا دفعُ بدل الايجار . وكانت هذه المزرعة تنقسم الى خمسة الوية : لواء حلب ، ولواء طرابلس ، ولواء دمشق ، ولواء عكا او صيدا ، ولواء فلسطين . وكان لبنان بحدوده الحالية داخلاً جغرافياً في لواءي صيدا وطرابلس . غير ان ادارته كانت مستقلة عنهما استقلالاً تاماً .

وكان الوالي او الباشا ، اي نائب السلطان ، يعين لسنة واحدة ، وفي لواء حلب لثلاثة اشهر . فاذا انتهت مدته طُرح ايجار اللواء بالمزاد العلني فازدحم المتنافسون في الباب العالي وتدخل المتنفذون ونشرت الرشوة حبائلها ، ففاز بالصفقة ذو اليد الطولى او « الطويلة » ، لا ذو الكفاءة والمقدرة ، وصدر الفرمان بتنصيبه . فجاء عاصمة ولايته واكبرُ همه ان يجمع اولاً ما انفقه في المزاد العلني ، وان يجمع ثانياً مبلغاً آخر لتجديد الكراء في اجله ، وان يجمع ثالثاً ما يتيسر جمعه للطوارئ . ولم

يكن هذا بالامر الصعب عليه ، وبيده جميع اعنة الحكم يتصرّف بها تصرفاً مطلقاً . فهو رئيس الادارة ، ورئيس المالية ، ورئيس الجند ، ورئيس الضابطة ، ورئيس العدلية ، لا يخرج من يده الا القضاء الشرعي الذي كان مرتبطاً رأساً بقاضي القُضاة في الآستانة . وما كان على الوالي في مُزاولة الحكم ان يستشير سوى نفسه ، والنفس امارة بالسوء ، وما اصدق ما قال الشاعر :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجد ذا عفّة ، فلعلّة لا يظلمُ

قلنا ان الوالي كان يعين لمُدة سنة واحدة . فما كان عليه ان يضيّع هذا الوقت الثمين فيما لا طائل تحته ، بل عليه ان يبدأ استثماره حالّ وصوله الى مقرّ عمله . واوّل ما يتبادر الى ذهنه ممارسة سلطته الادارية في عزل الموظفين وتعيينهم ، فيفتح سوقاً للمزاد العلني درس اصولها وفروعها في عاصمة السلطنة ، ثم ينصرف الى تلزيم جباية الاموال الاميرية على الطريقة نفسها فيكثر في بابه المتزاحمون وحاملو الهدايا ، والواشون ، والمفسدون ، فيستغل كلّ هؤلاء استغلالاً مالياً ، وهؤلاء يستغلّون بدورهم من يتخذونهم لمؤازرتهم في جباية الاموال ، وهؤلاء يتحوّلون بكل ما في يدهم من سلطة وفي قلبهم من جشع على المكلفين ، ولا سيما الفلاحين منهم . وهكذا يتسلسل الظلم ويتضاعف بانحداره ككرة الثلج حتى يستقرّ بضخامته المرهقة على كاهل الشعب .

ولا تقف مداخيل الوالي القانونية عند هذا الحد . بل لديه ، عدا الرشوة والبلص ومصادرة الارزاق ، موارد اخرى منها استيفاء مكوس الجمارك حيث يكون جمارك ، وضريبة الارث . واذا كان الوالي اميراً على الحجّ ، حقّ له ان يرث من يتوفاه الله في حجه ، ومن يتوفاهم الله في حجهم كثيرون ، فالطريق شاقة وعرة طويلة ، والامراض منتشرة ابداً ، واهل البادية في المرصاد ، يغتنمون كلّ فرصة تسنح للفتك بالحجاج والاعتداء عليهم . وهناك وسائل اخرى شتى لارسال الاغنياء من هذه الدار الفانية الى دار البقاء .

وكان الوالي يستغلّ على نفقته الاراضي التي يستصفيها ، ويحتكر بعض المرافق التجارية ، ويدّين بالفائدة . واذا اعوزه المال فرض الضرائب على الاهالي . ذكر ڤواني ان عبدي باشا ، والي حلب ، جمع في خمسة عشر شهراً اربعة ملايين

من ضريبة وضعها على اصحاب المهن حتى منظّفي الفلايين منهم.

فلا غرو، والحالة هذه، ان يجمع الولاة القناطير المقنطرة من المال، ولديهم ما لديهم من الوسائل والاساليب حتى ان ثروة الجزّار قد بلغت العشرة ملايين من الفرنكات الذهب. غير ان المال كالظلم مرتعه وخيم، وطالما كان سبباً لهلاك صاحبه. فان الباب العالي لم يكن ليغفل عن هذه الثروات الضخمة بل كان يتغاضى عنها زمناً، ويتريّث حتى تتراكم، والى ان يحين الوقت، وعندئذٍ تنقضّ الكارثة على الباشا انقضاض الصاعقة، فيُصبحُ يوماً، وفي بابه رسول من الآستانة يحمل اليه فرماناً بعزله او نفيه او خطّاً شريفاً بقطع راسه وحمل كنوزه وممتلكاته الى العاصمة، بحجة انه ظلم الرعية وسلب اموالها. غير ان هذه الاموال التي يُقتل الباشا او يُعزل بها لا تُردّ ابداً لاصحابها.

وقد يحتاط الوالي للامر لضُعف الثقة بينه وبين اسياده. فيبُثّ جواسيسه في الآستانة ويتخذ له حُماة متنفذين يدافعون عنه ويُشمرونه بقرارات عزله او قتله، فيتلافى الامر بالرشوة، وان لم يستطع فبالهرب، كما حدث لاسعد باشا والي دمشق.

هذا الوالي الذي تقوم مهمته بالمحافظة على الامن في داخل البلاد، وحمايتها من الاعداء، واعداد اسباب الراحة والرفاهية للرعية؛ هذا الوالي وجُباته كانوا آفة البلاد الاولى. اما الآفة الثانية فارباب السيف وافراد الجُند. وهؤلاء كانوا طوائف، منهم من أهل البلاد، ومنهم غرباء. فمن سكان البلاد كانت الطائفة الانكشارية وهي تتألف من جنود لهم رؤساؤهم، ولهم ميزات كثيرة، ولهم نفوذ عظيم يتعاطون مهناً مختلفة ولا يُحشدون الا عند الحاجة اليهم لقمع فتنة، او ردّ عدوّ، او للثورة على الوالي. وكانت هذه الطائفة منظّمة تسود فيها الروح العسكرية. غير ان الفساد كان قد دبّ اليها، وكان الحكام يتعمدون اهمالها والتغافل عنها خوفاً منها واتقاء لشرّها، والاستعاضة عنها بجنود اجانب متطوّعة مرتزقة اكثرهم من التركمان والاكراد والمغاربة، يُجمعون من الشذّاذ وقاطعي الطرق واللصوص الذين تضيق بهم مواطنهم، فيلجأون الى الباشا لخدمته ومساعدته على ابناء البلاد. وكانوا على نوعين: مشاة وخيالة، يختلف عددهم

باختلاف الولاية ولا يتجاوزون جميعاً في الغالب الالف نفر في كل لواء . وكانوا يخدمون برتب زهيد قد لا يقبضونه ، فيستعيضون عنه بالتعدي على السكان في الدساكر والقُرى والمزارع فيسلبونها وينهبونها ، وليس من يردعهم . فان الباشا يرى في سلوكهم هذا فائدة له إذ تتوفر عليه النفقة ، وربما قاسمهم ما سلبوه.

ولا عجب ، والحالة ما رأينا ، ان تعمّ الفوضى ويسود الخراب . ومما ذكر دي ڤولني بهذا الصدد ان لواء حلب كان يعد ٣٢٠٠ قرية فلم يمض زمن يسير حتى تدنى عددها الى ٤٠٠ اما سكان هذه القُرى فمن سلم منهم عاد الى صحرائه ، ان كان من الصحراء ، والّا التجأ الى الجبال يختفي ويعتصم فيها ، او فرّ الى المدن حيث يضيع في الجمع ويكون فيها آمن على نفسه وماله من اعتداء افراد الجُند عليها.

فاذا كان الامر كذلك ، كان من العَجب العُجاب ان تزدهر القُرى وتحيا الاراضي ، وان ينصرف الفلّاح الى استغلال حقله واغناء ثروته ، وهو عرضة ابدًا للكوارث الطبيعية والبشرية . فاذا سلمت مزروعاته من الجراد والقحط والفيضان ، قاسمه اياها الجباة ، وما بقي منها تولى سلبه الجُند او تكفل باتلافه البدو . ولو فرض أن الفلاح كان على شيء من الامن فما كان يزرع الا ما يكفيه مؤونته ومؤونة اهله ، ليقينه من فُقدان ما زاد على ذلك ، لان مظاهر الغنى تلفت نظر الحكام وتهيّج جشعهم فلا يقرّ لهم قرار حتى يُنزلوا الويل باصحابها ويستخلصوا اموالهم.

يقول دي ڤولني إنه لاحظ في جوار طرابلس ان التوت في بعض البساتين قد شاخ ولم يبدل منه غيرهُ ، فحمله الفضول على ان يسأل بعضهم عن سبب هذا التهاون فاجابه فورًا : اذا غرس احدنا شجرًا ، قال الباشا في نفسه : هذا رجل غني . فيستقدمه ويطلب منه شيئاً من المال . فاذا انكر او ابى امر بجلده ، واذا اعطاه ما طلب امر ايضاً بجلده للحصول على مبلغ اوفر.

ولم تكن هذه المظالم تقتصر على الفلاحين دون سواهم . فاهل المدن معرّضون لها كالفلاحين . فمن كان منهم على شيء من الغنى عَمل جهده في اخفائه وتظاهر بالمسكنة والفقر . فقلّ ان ترى بيوتاً فاخرة الا ما كان منها الولاة

والجكام والاغوات . اما المساكن الاخرى فظاهرها رثّ ، قليل النوافذ ، خالٍ من الهندسة . وقد يكون في داخلها بعض اسباب الراحة والرياش الثمين . قال دي ڤولني : سوّلت لاحد الاغنياء نفسه ان يبني له قصرًا . فلما رآه الباشا حتى ارسل الى ربّ القصر يقول له : إنه يودّ لو زاره وتناول القهوة في بيته . فلما دخل البيت طابت له الاقامة فيه ولم يتخلّص منه صاحبنا الا بهدية « زهيدة » تبلغ عشرة آلاف ذهب ، على ان يعود لزيارته مرة ثانية .

وكأنّ هذه الآفات الثلاث : آفة الوالي ، وآفة الجباة ، وآفة الجند ، لم تكن كافيةً لازهاق الشعب . فهناك آفة اخرى قد تكون اشدّ وقعًا عليه ، الا وهي الفتن والحروب المتواصلة . فتارةً يثور الجند على الباشا لتهاونه في الانفاق عليهم ، وطورًا يشنّ البدو الغارة على اهالي الحضر لنهبهم وسلبهم ، او تُشهر الحرب بين الولاة انفسهم تراحمًا على لواء او انتقامًا من منافس او عدوّ او تحصيلًا لجزية أبى احدهم دفعها . وهكذا يظل الجند يسرحون في البلاد عرضًا وطولًا يعيثون فيها فسادًا ويُلقون الرعب في قلوب الاهلين ، ويسوقون الطرش ، ويحرقون الزرع ، ويُتلفون الغرس ، ويهدمون البيوت ، فحيث يمرون لا يتركون الّا اطلالًا بالية خالية . ومن يخامره الشك في اقوال دي ڤولني ما عليه الا مراجعة تاريخ الامير حيدر الشهابي الذي يتكلم عن تلك الفترة من الزمن ليتأكد من صحة ما اورده الكاتب الفرنسوي . فان الغالب من المقاتلين ما استولى على قرية او مدينة الا احرقها ونهبها متمثلًا في ذلك المثل العربي القائل : من غلب سلب ، ومن عزّ بزّ . وكانت الاضرار تكاد تنحصر في الاموال ، لأن المواقع ما كانت تُسفر الا عن قليل من الجرحى والقتلى . وكان الفريق المدحور يتبدد خاذلًا اميره غير ملتفت اليه ، وكيف لا يكون ذلك والجنود مأجورون غرباء لا يحاربون لغاية شريفة او مدافعة عن وطنهم ، بل سعيًا وراء جرّ مكسب او مغنم .

اما الباب العالي فكان موقفه من هذه الحروب الاهلية موقف النظارة لا يتدخل فيها الا اذا كان خطرٌ على السلطنة ، وربما عاون احد الولاة على قرينه لوفر في غناه ، او ابسطة يده في الرشوة ، فليس من رائد غير المال ولا من مطمع الا نشر الفساد والتفرقة بين الرعية ، فتراه لا يُحجم في سبيل النهم

والمنفعة عن انزال النقمة بخير عمّاله واظهار الرضى لشرّ ولاته . فالجزّار ، وهو المنتصب السفّاح ، كاد يستولي على جميع البلاد السورية بالدسائس والعراطيل والقحة ، فانه اشترى لواء دمشق، وجمع في يده الى هذا اللواء لواء عكا ولواء طرابلس ، وطمع في لواء حلب .

وقائل يقول : اما من مرجع للشعب يُرفع اليه شكواه ويعرض عليه ظلاماته ؟ أما من محاكم للنظر في دعاوى السلب والنهب والاغتيال ؟

لم يكن من مرجع في الجنايات والجنح الا الوالي هو الحاكم الفرد لا استئناف لحكمه ولا تمييز، فاذا فصلَ في قضية نُفذ حُكمه في الحال . وليس من دور للعدل فالمحكمة حيث يكون الوالي. وقد يؤتى بالجاني الى الحاكم ، والحاكم في طريقه الى نزهة او الى صيد ، فيُصدر الحكم باعدامه ويأمر الجلادَ الذي لا يفارقه بتنفيذ الحكم فيمدّ الجاني عُنقه ويطيح الجلاد رأسه ، ويتابع الوالي طريقه الى النزهة او الى الصيد ، وينتهي الامر . وقد يتولى الحاكم تنفيذ الحكم بنفسه ، كما فعل الجزار اذ بقر بطن احد البنائين بضربة من فأسه .

وقد يَعهدُ الوالي بهذه السلطة الى عمال له ، فينبثّون في المدن والقُرى ، ويتخذون لهم الجواسيس والوشاة ، ويكون مُعظم هؤلاء من الاشرار المفسدين الدسّاسين ، فيكثر الجور ، ويعم الظلم ، ويسود البرطيل والرشوة ، ولا سيما في محالّ التجارة حيث تفحص المكاييل والموازين ، ويعاقب على كل خلل فيها بخمسمائة جلدة وبعض الاحيان بالقتل .

ولم يكن من محاكم مستقلة الا المحاكم الشرعية . فان هذه المحاكم كانت مرتبطة رأساً بقاضي القُضاة او قاضي العسكر في الآستانة . وكانت ، على حد قول ڤولني، على غاية من البساطة . فالقاضي يجلس للقضاء في بيت لا يحجبه به حاجب عن المتداعين ، ولا يقوم بينه وبينهم وسطاء ولا محامون ، فتقلّ النفقة ويُقتصد بالوقت . واذا كان القاضي نزيهاً عالماً بالشرع اقام ميزان العدل وانصف الناس وارضى الجميع . واذا كان جاهلاً غاشماً محباً المال ، اضطرب الامر واصبح ظلمه موازياً لظلم الحاكم متمماً له .

ولا نتكلم عن النظافة واسباب الراحة في المدن فانها كانت مفقودة ، ولا

عن العلم فان الجهل كان مخيماً على الربوع السورية. لا مدارس فيها ولا كتب ولا اطباء ولا مهندسين. وجلّ ما هناك بعض علماء في الشرع يُرشحون نفوسهم للقضاء.

اما الصناعة فكانت تستخدم ادوات مضى على اختراعها الوف من السنين. وكان القسم الاكبر من التجارة بيد الاجانب من فرنجة وارمن ويونان وما ذلك لزهد الاهلين بها او ترفعاً او وَرَعاً، بل لاسباب اخرى. منها أن الباب العالي كان، لحكمة لا تدرك او لسهولة تحصيل المال، يُراعي جانب الاجنبي ويميله على ابناء البلاد. فكان الاجنبي مثلاً يدفع عن بضاعته عند اخراجها من الجمرك ثلاثة بالمائة بينما الوطني يدفع سبعة او عشرة. وكان الاجنبي، اذا دفع الرسوم الجمركية أُعفي منها عند نقل بضاعته من بلد الى بلد. اما الوطني فكان يدفع عنها رسماً جديداً كلما نقلت. وكان الباب العالي يُوزّع على سفراء الدول، عند قدومهم الى العاصمة العثمانية براءات اي رُخصاً للتجارة. وكان السفراء يوزّعونها بدورهم مجاناً على رعاياهم. ثم سرت اليهم عدوى حب المال فاخذوا يبيعونها منهم بيعاً.

هذه صورة مصغرة عن حالة البلاد السورية في اواخر القرن الثامن عشر. ولا عجب ان تؤثر هذه الحالة في الاخلاق الاجتماعية والعادات فتظلم النفوس ويكثر القلق، وتذهب البشاشة من الوجوه، ويخفّ النشاط والسعي، وتضعف الثقة بالحكام، ويتظاهر الناس بالبؤس والفقر. وقد توهم بعضهم، ومنهم مونتسكيو، ان سبب هذا الكسل والتراخي في بُلدان الشرق هو إقليمها الحارّ. فرد عليهم دي ڤولني رداً طويلاً جاء فيه أن الظلم واضطراب الامن هما اصل كل هذا البلاء، وان الحرّ لو كان سبباً لقلة النشاط والحركة لما قامت دول الشرق القديمة التي دوّخت العالم ولما ازدهرت في قلب الصحراء مدينة تدمر العجيبة.

وكأنّ ڤولني اراد ان يقدم دليلاً قاطعاً على صحة رأيه، فشفع وصفه لسوريا بوصف منطقة من هذا الاقليم الحارّ، قائمة على البحر المتوسط، هي لبنان، فقال: ان قبساً ضئيلاً من نور الحرية والوطنية يغيّر وجه الارض.

كانت حدود لبنان في ذلك الزمن تتسع او تضيق، وفقاً لسطوة حكامه

وحنكتهم السياسية فتكون تارةً من صفد وعجلون الى بعلبك وتشمل بيروت. وتكون طوراً دون ذلك . على ان لبنان لم يكن في اي وقت من الأوقات خاضعاً خضوعاً تاماً لسلطان الاتراك ، وقد ظلّ مستقلاً في حكمه لا تربطه بالباب العالي أية رابطة، حتى سنة ١٥٨٨ ، حيث تفاقم اعتداؤه على اراضي الدولة فجرّد عليه السلطان مراد الثالث جيشاً عظيماً لاذلاله ووضع حدّ لطغيان ابنائه الدروز والموارنة . فتمكن ابراهيم باشا ، القائد التركي ، بقوة جيشه وبذره بذور الشقاق والخلاف بين زعمائهم من ردّهم الى جبالهم وفرض الجزية عليهم. لكنهم ظلوا مستقلين في ادارة شؤونهم الداخلية لا يولون عليهم الا منهم. وكانت هذه الجزية تعظم او تضؤل تبعاً للاحوال السياسية ولقوة شوكة الامير اللبناني او ضعفها. وقد يأبى الامير دفعها غير آبه لتهديد الباب العالي ووعيده ، وقد يُعلن عمالة الحرب ويساجلهم القتال ويستولي على مدنهم واراضيهم . وكثيراً ما حاول عُمال الاتراك إقتحام الجبل فعادوا بخفّي حنين . وهل من حاجة لذكر ما قام به فخر الدين المعني من مآثر مجيدة واعمال جليلة ، كانت اكليلاً من الغار على جبين لبنان الناصع.

كان لبنان مؤلفاً من منطقتين: جبل الدروز ، وبلاد كسروان . وكانت حكومته ، على حدّ قول فولني ، حكومة غريبة الشكل فهي ملكية ارستوقراطية ديموقراطية في وقت واحد . فان رئيسها اميرٌ مطلق السلطة يرث الامارة عن ابيه ويورثها ابناءه ، او إخوته اذا لم يكن له ابناء ، واذا انقرض الذكور من الاسرة الحاكمة انتخب امراء البلاد ومشايخها واعيانها خلفاً له من أسرة اخرى عريقة في الحسب والنسب ذات حول وطول. وكان الامير يتصرف بشؤون رعيته تصرف الاب بشؤون بيته . فاذا كان حازماً عادلاً انقادت له البلاد وأطاعته طاعة عمياء . واذا كان ضعيف الرأي خائر العزيمة ، تراخت عنه وربما انقلبت عليه. غير أنه على تفرده بالحكم ما كان ليستبدّ برأيه ، ويستقل بادارته ، بل يُكثر من المشورة ويستطلع افكار ذوي الفضل والحنكة. ولا يبتّ في امر هام الا بعد ان يعقد مجالس عامة يشترك فيها وجوه البلاد ، وكل من له جرأة من أبناء الشعب . وكان يتحتم عليه عقدُ هذه المجالس اذا اراد زيادة

ضريبة الاموال الاميرية ، او اعلان حرب ، او عقد صلح . فهذه القضايا العمومية يبتّ فيها جميع سكان البلاد ، لان لها مساساً بكل فرد منهم ، ولان كل فرد من الشعب يغار على مصلحة الوطن غيرة الامير نفسه ، ويدافع عنه دفاعه عن بيته . ولم يكن للامير في ايام السلم جند نظامي من الاغراب كما هي الحالة في البلاد السورية ، بل كان جميع اهالي البلاد جنوده يلبون طلبه ويحشدون لاول إشارة منه . فاذا أعلنت الحرب ، صعد المنادون في المساء الى قمم الجبال في دير القمر ، وطرحوا الصوت صارخين في سكون الليل بملء حناجرهم : « الحرب . الحرب . تقلدوا البنادق والسيوف والرماح وامتطوا الخيل وهلموا الى دير القمر » فاذا سُمع هذا النداء الرهيب وردّدته اصداء الاودية ، صعد المنادون في القرى المجاورة الى اعالي التلال وردّدوه ، فلا يمضي بعض الزمن حتى ينتشر الخبر من اقصى الجبل الى اقصاه وتتألب الرجال من جميع الجهات متوافدة الى الدير : الامراء والمشايخ على خيولهم ، والاهالي على اقدامهم . وكانت الحرب متواصلة بين الجبل وجيرانه فكان ابناؤه يتمرسون بها ويصبرون صبر الابطال ، واذا كان سلم قضوا اوقاتهم بالتدرب عليها والتمرن على فنونها ، فكانوا من خيرة الفرسان والرماة وعلى جانب عظيم من الشجاعة والجرأة .

يقول دي ڤولني : لو اتيح لهؤلاء الجنود البواسل أن يُدرَّبوا تدريباً عسكرياً حديثاً ، وان يُجهَّزوا بالمعدّات الحربية ، وان يكونوا تحت قيادة قواد ماهرين كما هي الحال في اوروبة ، لتفوّقوا تفوقاً بيّناً على الجيوش الاوروبية . فانهم على جرأة تقرب من التهوّر ، صليبو العود ، مفتولو الساعد ، صبورون على الشدائد ، اطوع لقائدهم من بنانه . ويذكر أنهم في سنة ١٧٨٤ قضوا ثلاثة اشهر منتشرين في الفلاة لا خيم ولا بيوت يأوون اليها ، وأنهم رغم قلة المؤن وخفة اللباس ، ورغم تعرّضهم للتقلبات الجوية ، لم ينل المرض والموت منهم اكثر مما ينالانه فيما لو كانوا في بيوتهم وقال : «ان هذه المدّة الطويلة التي قضوها على هذه الصفة في الحرب لا يقوى الفرنسيون ولا الانكليز على الثبات عليها مدة عشرة ايام . »

كان عدد سكان لبنان من دروز وموارنة يبلغ ما يقارب الـ ٢٢٥٠٠٠ نفس يحشد منهم في ايام الحرب ٧٥ الف جندي كلهم صالح للقتال . وكان معدل عدد الاهالي في الفرسخ المربع ١١٠٠ نفس، اي ما يوازي في ذلك الحين نسبة المقاطعات الفرنسوية الاوفر سكاناً والاكثر خصباً ، مع ان المنطقة اللبنانية معظمها من الجبال العالية الجرداء ، وما بقي منهـا فاراضٍ صخرية لا تصلح للزراعة او اراضٍ خفيفة التربة لا تخصب الا بفضل نشاط اللبنانيين وجلدهم . وقد بلغ بهم الحرص على احياء الزراعة شأوًا بعيدًا حتى انهم فتتوا الصخور وزرعوها .

هذا ولم يكن في لبنان شأن للصناعة والتجارة ، فما سبب هذه الكثرة في السكان ؟

لذلك اسباب عدة منها الامن والطمأنينة . فليس هنالك ظلم ولا بلص ، ولا جند اغراب يتعدون على الارزاق والارواح ، ولا بدو يرعون الزرع عشباً . ومنها مُلكية الارض فكل لبناني ارضه له ، او كأنهـا له ، يتعهدها ويحييها ويأكل ثمرها وينام مرتاح البال على يقين من انه يورثها ابناءه بعد موته . ومنها أن الجبل كان ملجأ للفـارين من وجه الظلم يأتون اليه معتصمين فيلقون معقلاً منيعاً وصدورًا رحبة ويكثر بهم عدد الاهالي ، وتقوى شوكتهم وتعظم هيبتهم في نفوس جيرانهم ، وتزيد بهم الجنود والايدي العاملة . كانت الاراضي فيما مضى اقطاعات للاسر الكبيرة ، ولم يكونوا يتمكنون من استغلالها ، فاخذوا يبيعونها ، حُبًّا لإحيائها ، من الفلاحين ، فتوزعت ، واصبح لكل فلاح ارضه يُعنى بها عنايه بابنائه ، ولم يكن عمله ابأن السلم الا الزراعة والتمرن على الاعمال الحربية ، وكان جميع ابناء البلاد ينصرفون اليها ، المشايخ منهم والعامة على حد سواء ، ولاسيما الرهبان والكهنة . وذكر ثولتي أنه كان في كل دير من اديار الجبل رهبان يتعاطون الخياطة والاسكفة والتجارة وما الى ذلك .

وكانت المساواة سائدة في لبنان حتى في توزيع الاموال الاميرية ، فلا يدفع احدهم الضريبة الا على نسبة ما يملك . وكانوا يتساوون ايضاً في اللبس . فلا يفرق بين الشيخ والفلاح الا عباءة قد تكون مرقعة لا قيمة لها . وهنا

ينتقد قولني طريقة توزيع الارث في لبنان فيقول : يحق للبناني ان يورث احد ابنائه دون اخوته محافظةً على تُراث العائلة ، مما ادّى الى وجود مشايخ وامراء لا يملكون الا القابهم ، يدعون امراء الزيتون .

ولم يكن في الحكومة اللبنانية قوانين جزائية او مدنية مكتوبة . بل كانوا يتمشون في ذلك على العرف والعادة . وكان الحاكم يعيّن القضاة . غير انه كان يحتفظ لنفسه بحق العفو او تنفيذ حُكم الاعدام.

وكان الدروز والنصارى على احسن ما يكون من الالفة والتساهل ، لا يتدخل بينهم الدين ، ولا تفرق بينهم الحزازات والاحن ، بل كانوا يدًا واحدة على العدو الاجنبي ، حريصين على استقلالهم وراحتهم ، في جيرة بلادٍ سادتها وجنودها ليسوا منها يغمرها الاضطراب والارهاب والجور ، ولا معنى للوطنية فيها .

وكان الدروز يقطعون في جبالهم الاقطاعات للرهبان النصارى فيبنون فيها اديارهم ويغارسون فيها شماتهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكان مدبرو الامراء الدروز ومستشاروهم وكتابهم من النصارى لان هؤلاء كانوا اسبق من انصرف للعلم في تلك الايام بفضل المطابع التي انشأها الرهبان في لبنان ومنها مطبعة مار حنا الشوير . انشأها في اواخر القرن الثامن عشر رجل كان قد تتلمذ على اليسوعيين في حلب يدعى عبدالله زاخر . وُشي به للباب العالي فاصدر خطًا شريفاً بقتله ، ففرّ والتجأ الى دير مار حنا للرهبان الكاثوليك ، وكان اخوه رئيساً عليه ، فتعاونا على اعداد المطبعة . فرسم عبدالله حروفها وحفر أمهاتها واخذ في طبع الكتب بمؤازرة الرهبان . فكان اول ما طبع كتاب المزامير لداود النبي ، فاصبح هذا الكتاب مدرسياً يتعلّم به الاولاد القراءة[1] . وهكذا انتشر العلم في لبنان في جوّ مطمئن هادئ وما لبث ان انتشر منه الى الاقطار المجاورة .

وكان الدروز والموارنة ، اذا قابلوا بين حالتهم وحالة جيرانهم ، وجدوا فرقاً

---

(١) هذا ما دوّنه قولني من معلومات عن عبدالله زاخر ومطبعته ، تناولها في دير مار يوحنا نفسه ، وقد أقام بين رهبانه اياماً كثيرة . وقد يكون في تفاصيل روايته بعض الهنات الطفيفة ، الا انها لا تغير الفكرة العامّة .

عظيماً: هم احرار، وجيرانهم رازحون تحت نير الظلم والجور. هم مطمئنون، وجيرانهم في قلق دائم. هم يحكمون نفسهم بنفسهم، وجيرانهم حكامهم غرباء. هم جند البلاد يدافعون عنها ويفدونها بأموالهم وارواحهم، وجيرانهم جنودهم مرتزقة من شذاذ الاقطار. هم في أمن، وجيرانهم في خوف. فتعظم عندهم نفوسهم، وتغلب فيهم الانفة والعزة، وتشرق وجوههم بالبشاشة والطلاقة، ويقل فيهم الخبث والسكينة، ويكثر النشاط والاقدام.

غير انهم كانوا في بيئتهم الضيقة مكتوفي الايدي، قصيري الباع، محفوفين بالخطر، معرضين للاعتداء والانتقام، لا عاصم الا جبالهم وجرأتهم، ولا حصن الا اتحادهم والفتهم، لا يتسع لهم مدى لمواهبهم ولا ينفتح لهم منفذ لانتشارهم.

فاذا قابلنا بين ما كانوا عليه اذ ذاك وما صاروا اليه اليوم وجدنا بوناً شاسعاً. واذا قابلنا بين حالة سورية في تلك الايام وحالتها الآن، وجدنا البون اوسع. فما هي العوامل التي ساهمت في هذا التطور السعيد؟

أترانا لو تُركنا وشأننا وظللنا منعزلين في هذا السور المبني بحجارة الجور والاستبداد أكنا تمكنا بنفوسنا من الانعتاق ومماشاة الامم الحية على طريق الرقي والعمران. قد يكون ذلك ممكناً لو كانت مقدراتنا بيدنا، ولو كنا على كلمة واحدة تنفخ في صدورنا روح الوطنية والغيرة على المصالح العمومية. اما، والحالة ما رأينا، فكان لا بدّ لنا من نجدة تأتينا من الخارج وتقشع عنا هذه الغيوم المتلبدة في سمائنا، وقد جاءتنا هذه النجدة على اشكال شتى لم يكن شعار جميعها المحبة والعاطفة الانسانية، بل كان رائد معظمها يرمي الى خلاف ذلك. فهناك المطامع الاستعمارية، والمنافسات السياسية والمنافع التجارية. على أنها، مهما تنوعت ومهما كان القصد منها، فان الذي اوجدته بيننا وبين الغرب قد اثمر ثماراً عاد خيرها علينا فأفدنا منها ولا نزال. وسواء أكان الاجانب اصدقاء، ام غير اصدقاء. فاننا باختلاطنا بهم قد تفتحت عيوننا على آفاق واسعة في جميع الحقول السياسية والادبية والوطنية والعلمية لم نكن لنحلم بها لولا هذا الاتصال. اما وعينا الحاضر الذي يدبُّ الآن في صدر كل منا فاني اراه قد استيقظ من سباته العميق على دويّ مدافع نابليون في عكا.